﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا: ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰ إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب فى كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتى الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب - تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفىء النار برطوبتها[1] . فهى - إذن - مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بكر الثقفى قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهى خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤١٣) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] وقلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. (٣١) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. (٣١) ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شيء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشيء الواحد ، فهى فى خفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿ ولَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١)﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١)﴾ [القصص] يعنى : ارجع ولا تخفْ من شىء ، ثم يعطيه القضية التى يجب أن تصاحبه فى كل تحركاته فى دعوته ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك فى هذا الموقف إنما ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص]

يعنى : هى قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك فى مَعيّة الله ، ومَنْ كان فى معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده فى جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التى رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى ـ عليه السلام ـ هى معيَّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب فى وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله فى معيَّته وحفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾[النمل]

وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد ﷺ ، فانتفع به ووثق في نصر الله ، فلما قال له الصِّدِّيق وهما في الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنَا ، قال ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] وما دُمْنا في معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق - تبارك وتعالى - موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٣٢) ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ..(٣٢) ﴾ [القصص] يعنى : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال في داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده في قَبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآنى ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخلها تخرج هى بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت فى الإدخال ، أما فى الإخراج فهى لقدرة الله .

وكلمة ﴿ بَيْضَاءَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] أى : مُنوَّرة دون مرض ، والبياض لا بُدَّ أن يكون عجيباً فى موسى ـ عليه السلام ـ لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعى مُعْجز .

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. (٣٢) ﴾ [القصص] الجناحان فى الطائر كاليدين فى الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسىء التصرف تضرب صدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقى[1] ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿ فَذَانِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتى العصا واليد ﴿ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] أى ربك الحق ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ.. (٣٢) ﴾ [القصص] الرب الباطل ، ولا يمكن

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٧٠) قال : « قال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب » .

أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والبرهان : هو الحجة والدليل على صدْق المبرهَن عليه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] ، لأنّ فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] أى : جميعاً فرعون والملأ ﴿ فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] أى : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقت الرُّطَبة يعنى : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الدينى الذى يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءته .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾

فما زال موسى - عليه السلام - خائفاً من مسألة قتْل القبطىِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى - عليه السلام - وهو صغير فى بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة فى لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أنْ يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] يعني : : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مثْلي بتكليف من الله .

لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فَهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء في قول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حدَة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى - عليه السلام - على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]

المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه[1] ، والمؤمِّن أحد الدَّاعييْن .

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ (٣٥)﴾

أجابه ربه : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] لأن موسى قال فى موضع آخر : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى[2] (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢)﴾ [طه] وقوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة فى الحمل والحركة هى العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شىء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥)﴾ [القصص] هذه هى القوة المعنوية ، وهى قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] أى :

---

(١) عن عكرمة رضى الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمِّن هارون عليه السلام ، فذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/٢٨٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبى الشيخ .

(٢) الأزْر : القوة . وآزره : قوّاه . [القاموس القويم ١/١٨] .

نُنجيكم منهم ، لكن معركـة الحق والباطل لا تنتهى بنجاة أهل الحق ، إنمـا لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل البـاطل ، وفَرْق بين رجـل يهاجـمه عدوه فـيغلق دونه الباب ، وتنتـهى المسألة عنـد هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عـدوه ويغالبه حتى ينتـصر عليه ، فيكون قـد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقـوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿بِآيَاتِنَا .. (٣٥)﴾ [القصص] بين العـبارتين : ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] و ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] فهى إذن سبب فيـهما : فبآياتنا ومعـجزاتنا الباهرات ننجـيكم ، وبآياتنا ومـعجـزاتنا ننصـركم ، فـهى كلمـة واحدة تخـدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عـجـائب ألفـاظ القـرآن كلمـة (النجم) فى قـوله تعـالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] فجاءت النجم بين الشـمس والقمر ، وهما آيتان سمـاويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلـك صلحت النجم بمعنى نجم السـماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذى لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذى ترعاه الماشية فى الصحراء[1] .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ   وَيرْعَـاهُ مِـنَ البَيْدا جَـوَادِى

(١) قال أبو إسـحاق : قـد قيل إن النجم يُراد به النجـوم ، قال : وجـائز أن يكون النجم ههنا مـا نبت على وجـه الأرض وما طلع من نـجوم السـمـاء . ويُقال لكل مـا طلع : قـد نجم . [لسان العرب - مادة : نجم] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] أى : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿ مَا هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص]

لذلك يُعلِّم الحق - تبارك وتعالى - موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُنَاس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد ألفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما ألفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما ألفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفى أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذى عاشوا فى ظله ، فإنْ زِدْتَ فى القسوة عليهم ولَّدْتَ عندهم لدداً وعنادًا فى الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : اعذروه فيما يلاقى حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿ مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) ﴾ [القصص] فقابلهم أنت باللين .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى ـ عليه السلام ـ فلم يرد عليهم بالقسوة التى سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبق ، وبهذا الإيحاء : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : إنى جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) ﴾ [القصص] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ أنتم الظالمون . لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧) ﴾ [القصص] الدار يعنى : الدنيا . وعاقبتها تعنى : الآخرة .

وهذا الأدب النبوى فى الجدل والحوار رأيناه فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذى أحبوه وألفوه إلى الحق الذى يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك فى أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/١١٧) عند قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] وعزاه لابن عباس (أخرجه ابن مردويه والضياء فى المختارة) وأورده أيضاً (٣/٤٨١) عن عبد الله بن مسعود : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر .

ورحم الله شوقى الذى صاغ هذه المسألة فى عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكى يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذى يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو[1] مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطىء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذنى أولاً وأدركنى ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خفَّة البيان .

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما فى قصة نبى الله نوح عليه السلام ، والذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبى صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التى تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه فى الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّى نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان فى علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح فى دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ فى هدايتهم ، فقال :

---

(١) الأسا : المداواة والعلاج . والإساء : الدواء بعينه . [لسان العرب ـ مادة : أسا] .

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

ومحمد ﷺ يقول فى محاورته مع كفار مكة : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم فى استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيُسمِّى إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾

خشى فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨)﴾ [القصص] يعنى : إياكم أنْ تصدِّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيرى .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما بها أحد . [لسان العرب ـ مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالى . [القاموس القويم ١/٣٧٣] وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ..(٣٨) ﴾ [القصص] وفي موضع آخر قال : ﴿ يَـٰهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧) ﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضي قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفَّهم ولعب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨) ﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾